كتاب عيون الاخبار

تأليف ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري

المجلد الاول (ص ٣٤٤) ، والثاني (ص ٣٧٦) والثالث (ص ٣٠١) والرابع (ص ٣١٥)
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٥ — ١٩٣٠ ، قطع ٤ كبير

بقلم الاب توفل اليسوعي

عدّوا لابن قتيبة ٤٧ كتاباً نسبوها اليه. مواضيعها العلوم الدينية في القرآن والحديث والفقه ، والادب والشعر واللغة ، والطبيعة والاخلاق ، والتاريخ ، وغير ذلك مما يشهد لصاحبه بسعة المعارف وغزارة المادة والكدّ الذي لا يعتريه الملل في الجمع والتأليف والتحبير . من جملة تلك الكتب بعضها مطبوع بجزئه او بكماله ، ككتاب الاشربة وادب الكاتب ، والميسر والقداح ، وكتاب فضل العرب على العجم ، وكتاب المعارف ، وطبقات الشعراء ، وكتاب الامامة والسياسة ، وتأويل مختلف الحديث ، والوحل والمنزل ، واللبأ واللبن ، وعيون الاخبار الذي نعرض لوصفه . وان هذا الكتاب موسوعة حوت كل ما كان يحتاج اليه في العصر الثالث الهجري ، رجال الحكم والادب للحصول على الثقافة العامة التي لم يكن لهم غنى عنها . وفي ايامهم كانت المكاتب نادرةً والكتب غير متوفرة الا للقليلين ، فاعزها منزلة تلك التي تكفي عن مراجعة غيرها ، مثل عيون الاخبار .

وصف المؤلف كتابه في مقدمته فقال انه جمع فيه « المتخير من كلام البلغاء وفطن الشعراء ، وسير الملوك ، وآثار السلف » . فيستطيع المطالع ان يأخذ منها ما يروق له ، فيقوّ ثقافته ، ويتخلص من مساوئ الاخلاق ، ويتروّض على حسن السلوك ، واجادة الانشاء فينال طلبه اذا سأل ، ويردّ اللوم عنه اذا عوتب الخ . . . وفي الكتاب نصائح للخاصة والعامة ، ومواعظ وارشادات فهو « مثل المائدة ، تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين » او

كالقاموس المعتمد عليه في الجواب على كل مسألة من المسائل التي كانت تطرح على متعلمي ذلك العصر في مختلف العلوم .

فكأنه خلاصة لمؤلفات ابن قتيبة ، العديدة . وقد قسمه الى عشرة كتب بعد ما افرد عنه كتب الشراب والمعارف والشعر ، وتأويل الرؤيا .

والكتب العشرة مواضيعها : ١ً السلطان ٢ً الحرب ٣ً السؤدد ٤ً الطبائع والاخلاق ٥ً العلم ٦ً الزهد ٧ً الاخوان ٨ً الحوائج ٩ً الطعام ١٠ً النساء .

وكان قد طُبع من عيون الاخبار الكتاب الاول في مصر سنة ١٨٨٢م — ١٣٠٠ هـ ، و ١٩٠٧ م — ١٣٢٥هـ . وطبع بروكلمان الكتب الاربعة الاولى طبعة بتهى الدقة (١٩٠٠ — ١٩٠٨) . على ان الكتاب بكامله لم يظهر الا بين ١٩٢٥ و ١٩٣١ وقد قامت بطبعه دار الكتب المصرية مع سائر الموسوعات العلمية والادبية والتاريخية التي عرفت «مشروع احياء الاداب العربية» وذلك في ظل حماية فؤاد الاول ملك مصر .

اعتمد النُشار في طبعته على نسختين ١ً نسخة كوبريلي بالاستانة (رقم ١٣٤٤) واجزاؤها كاملة ، ونسخة بروكلمان في الكتب الاربعة الاولى ، وهذه مأخوذة عن نسخة كوبريلي المذكورة ، وعن نسخة اخرى مقصورة على كتابين ، الاول والثاني ، ومحفوظة في ليننغراد .

ظهر الكتاب باربعة مجلدات ، مطبوعاً طبعاً انيقاً كما هو معهود في ما تصدره دار الكتب . وقد سبق للمشرق وصف مطبوعاتها كالاغاني ، ونهاية الارب وغيرها . والمجلد الرابع من عيون الاخبار مصدر بمقدمة واسعة موقعة باسم السيد احمد زكي الصدوي ، رئيس القسم الادبي في الدار ، ترجم فيها الكتاب وصاحبه ، وبعد المقدمة روامز الصفائح الاولى للمخطوطات الذي طبع عنها كتاب عيون الاخبار ، واخيراً ، في الزيل فهارس لا يقلّ عددها عن الثمانية فضلاً عن الفصل في الاستدراكات .

لو يؤذن لنا بالاعراب عن رغبة لمثل تلك الموسوعات ، لاشتهينا لها فهرساً للمواد ، مرتباً على الابجدية . وليس الامر بالعسير نسبة للمجهودات التي بذلت بسخاء في وضع فهارس اهميتها دون اهمية فهرس ألمواد ، مثلاً فهرس القوافي .

قال ابن قتيبة في المقدمة (١ ، صفحة س) :

ان وقفت على باب من هذا الكتاب ، ولم تره مشبعاً ، فلا تقضي علينا بالاغفال ، حتى تتصفح الكتب كلها ، فانه رب معنى يكون له موضعان وثلاثة مواضع . وان مواد الكتاب الواقعة عناوينها في المقدمة (صفحة س — ق) اذا رُتبت بالابجدية واشير الى صفحاتها ، لاغنت المطالع عن «تصفح الكتاب كله».

* * *

اخذ مؤرخو الآداب العربية يبحثون على اصلها فيما اقتبسته عن آداب الهند وفارس واليونان والسريان . وان كتاب عيون الاخبار ، الكامل الطبع ، بفضل فهارسه ، واخصها فهرس اسماء الكتب والامكنة والاشخاص ، يبسط الطريق لمن يتتبع اثار كل مدنية من المدنيات التي اثر في العرب ، مفتشاً عليها ، واقفاً على تطورات نفوذها فينا .

من امثال ما يمكن الدارس استثماره من هذا الكتاب ، ولا بد من يلفت اليه نظر اساتذة تاريخ الادب العربي ، هو تعليماته عما اداه للعرب احتكاكهم بالهند ، مثلاً . قلت بالهند ، على سبيل اختيار مادة بين عشرات ، لان ما يقال عنها قد يمكن استنتاجه بالطريقة ذاتها عن بلاد فارس ، ومصر ، وفلسطين ، ولبنان ؛ وما يقال على المدن والاقطار قد يصح باولى حجة ايضاً في استثمار اثار الاشخاص والقبائل . وهم عشرات . . . وها اني احاول ان اكشف على تأثير الهند فينا من موسوعة عيون الاخبار . واعلم ان ابن قتيبة ولد في البلاد الواقعة على منتصف الطريق بين الهند وجزيرة العرب . فكان ابوه من مرو ، ومولده في البصرة او في بغداد ، سنة ٨٢٨ م — ٢١٣ ﻫ ، وقد نشأ بها وتثقف على رجالها ، وتولى القضاء في دينور بالقرب من همذان في فارس ، واتصل بابي الحسن عبيد الله بن خاقان ، وزير الدولة العباسية ؛ واسرة ابن خاقان الوزيرة شهيرة بالكتب التي جمعتها في دارها والعلماء الذين قربتهم اليها[1] ؛ فتوفرت لابن قتيبة مصادر الدرس والمطالعة والتأليف ، وهو في ايام بلغت الدولة العربية

---

١) راجع درس اوائلنا ينتر على الفتح بن خاقان وزير المتوكل *Rivista degli Studi Orientali* 1932, p. 133

اوج عزها ، فامتدت الى اقاصي الافاق شرقاً وغرباً ، واستمدت من علمها شتى التعليمات عن البلاد التي فتحتها . فما عسى ان تكون تلك التعليمات عن الهند ، وما هي تأثيراتها في العرب ؟ .

ذكر ابن قتيبة بلاد الهند لا اقل من ١٢ مرة في اسماء الامكنة ، و٣٩ مرة في اسماء القبائل . فافادنا انها كانت مع الصين والسند عملاً للعراق ، وقد فتحها محمد بن الحكم الثقفي وهو ابن سبع عشرة سنة . وما لفت نظر العرب اليها ؛ من نباتها : شجر الساج وهو عظيم جداً وخشبه اسود ، وشجر آخر له ورد احمر مكتوب فيه ببياض « محمد رسول الله » (كذا) (المجلد الثاني ص ١٠٠ ، ٩) ، وشجر الكرمة (١ : ١١ ، ١٣) ؛ ومن الحيوان : الكلب ، والفيل ، والاسد ، والحية ، والكركدن ؛ ومن اشكال وطباع هذه الحيوانات اخذوا استعارات وصفوا بها اخلاق الناس . وانتبه العرب لحلى اهل الهند ولباسهم ، (١ : ٢٢ ، ١١) واستحسنوا فيهم صناعة السيف (١ : ٩٤ ، ١٨) واستجلبوا المسك من عندهم (٢ : ٢٨٨ ، ١٧)

واثرت في العرب ، ومن العرب اتصلت بالآداب الغربية الامثال والحكم على اختلاف مبانيها ومبانيها ، وهي خلاصة ما وقف عليه العقل البشري من اختبارات الدهور ، فعبر عنه تعبيراً قليل الكلام كثير المعاني يسمعه السامع فيوعيه صدره ، ويراجعه في قلبه ويستحضره عند الحاجة اليه في تدبير امره في شؤون الحياة ، سواء أكان فرداً من افراد العامة او اميراً في قومه . وقد يجب كتاب الهند الذي بلغ الينا امره عن قلم ابن قتيبة ان يرتب تلك الامثال والحكم مثلثة « او مثناة » او مشفعة باستعارة تقربها للاذهان فكثيراً ما يذكرنا باسلوب ابن المقفع وكليلة ودمنة .

وبالاجمال قد يقال عن هذه الامثال والتعاليم انها لا ترمي الى غرض ابعد مما يرجوه الانسان لنفسه في هذه الحياة الفانية من راحة وطمأنينة وتمتع باطايب الدنيا ، والانتصار على الاعداء ، والتفوق على الاقران ، وممارسة الفضائل الطبيعية التي يؤول امرها الى سعادة الفانية كحسن الجوار والضيافة والحلم ، والكرم والصبر وغيرها . فالصوم يمتدح لان فيه اطالة الاعمار (٣ : ٢١٨ ، ٣)

وقد يُذكر التبتل عرضاً وعلى سبيل الحديث ، فلم تستفد الآداب العربية والحضارة العربية على ما ترى ، من كتاب عيون الاخبار ، من المدنية الهندية الافكار والعواطف السامية التي ظهرت في متصوفي الاسلام الورعين المتخشعين ، المستفين اجر الآجلة دون العاجلة.

اليك بعض الشواهد:

من كتاب السؤدد ، في الهمة والخطار بالنفس (١ : ٢٣١ ، ١٥)

« وفي كتاب للهند: ثلاثة اشياء لا تنال الا بارتفاع همة وعظيم خطر : عمل السلطان ، وتجارة البحر ، ومناجزة العدو . وفيه ايضاً : لا ينبغي ان يكون الفاضل من الرجال الا مع الملوك مكرّماً او مع النساك متبتلاً ، كالفيل لا يحسن ان يرى الا في موضعين : في البرية وحشياً او للملوك مركباً . وفيه ايضاً : ذو الهمة ان حط فنفسه تأبى الا علواً كالشلة من النار يصوّبها صاحبها وتأبى الا ارتفاعاً . »

من كتاب الحرب (١ : ١١١ ، ١١)

« وقرأت في كتاب للهند : لاظفر مع بغي ، ولا صحة مع نهم ، ولا ثناء مع كبر ، ولا صداقة مع خب ، ولا شرف مع سوء ادب ، ولا برّ مع شحّ ، ولا اجتناب محرم مع حرص ، ولا محبة مع زهو ، ولا ولاية حكم مع عدم فقه ، ولا عذر مع اصرار ، ولا سلامة مع ريبة ، ولا راحة قلب مع حسد ، ولا سؤدد مع انتقام ، ولا رئاسة مع غرارة وعجب ، ولا صواب مع ترك المشاورة ، ولا ثبات ملك مع خاون وجهالة وزراء . »

وايضاً في كتاب السؤدد عن كتاب للهند (١ : ٢٤٨ ، ٦)

« ذو المروءة يكرم سعداً ، كالاسد يُجاب وان كان ذليلاً ، ومن لا مروءة له يجان ، وان كان موسراً كالكلب وان طُوّق وحلّي »

واليك القصة التي وصلت عن الشرق الى لافونتين الافرنسي فانشأ عليها مثاله على الفلّاحة وجرة اللبن ، ووردت في مجاني الادب تحت عنوان الراعي والجرة (للقليوبي) ١ : ١٠٢

« ان ناسكاً كان له عسل وسمن في جرة ، ففكر يوماً فقال : ابيع الجرة بعشرة دراهم ، واشترى خمسة اعتر فأولدهن في كل سنة مرتين ؛ ويبلغ النتاج في سنين مائتين ، وابتاع بكل اربع بقرة ، واصيب بذراً فازرع ، وينمي المال في يدي ، فاتخذ المساكن والعبيد والاماء والاهل ويولد لي ابن فاسميه كذا وآخذه بالادب ، فان هو عصاني ضربت بعصاي رأسه ؛ وكانت في يده عصا ، فرفعها حاكياً للضرب ، فاصابت الجرة فانكسرت وانصب العسل والسمن على رأسه . »

وفي كتاب السلطان تعليمات كثيرة عن المبادئ الهندية في الحكم والسياسة

وتدبير الممالك وكلها تنم عن وجود السلطة في قبضة رجل واحد استأثر بها لنفسه[1] . فتلقينها العرب كان من العوامل التي ساعدت على انقلاب احوال الحكم في دولتهم . فان السلطة ، في بدء الفتوحات العربية كانت رهينة ارادة افراد يتشاركون فيها اعني بهم الزعماء والقوّاد من قريش ، وما مضى قرنان على ذلك الا اصبح الحكم في ارادة رجل واحد مستبد برأيه شأن الخليفة الرشيد او المنصور . وقد يؤدي التوسع في البحث الى ابعد ما توخيناه في هذا المقال من وصف الكتاب . على انه يوقنا ان نلفت نظر القراء الى درس حديث قام به الالماني ريشتر[2] في كتاب وضعه على الاخلاق السلطانية ومثالها الاعلى في العصور الاسلامية الاولى . مهد فيه الى البحث على فلسفة السلطة عند العرب مراجعاً في ذلك بعض ما كتبه ابن المقفع في الادب الكبير وفي كليلة ودمنة ، والجاحظ في التاج ، وابن قتيبة في العيون ، وابن عبد ربه في العقد الفريد ، واحمد بن ابي طاهر في كتاب بغداد ، مستطرداً من ثمّ في الكلام على ما اتى العرب من تعاليم اليونان في السياسة . وان غرضه انما هو تتبع مجاري الافكار صعوداً الى ينابيعها ، والمعرفة لكل ذي حق حقه في نشأة فكرة السلطان ونظام الملك وآداب السياسة وتطوّرها . فنخصّص عدة صفحات في تحليل الكتاب الاول من العيون مقابلاً بينه وبين كتاب التاج وكتاب العقد ، منتهياً عمن له الافضلية في التأثير في غيره . ومثل هذه المباحث اصبح السبيل اليها سهلاً بفضل الطبعات المزيّلة بالفهارس شأن طبعة دار الكتب للعيون.

واخيراً نذكر جوزف هوروفيز المستشرق العلم في كلية فرنكفورت . باشر نشر ترجمة كتاب العيون الى الانكليزية ، في مجلة الاداب الاسلامية[3] المطبوعة في حيدر اباد . لكن المنية حالت دونه ودون انجازه عمله . رحمه الله .

---

١) راجع المجلد الاول ص ٢، ٧، ١٨، ١٤، ١٩، ١٣ الخ . . .

٢) G. Richter : *Studien zur Geschichte der Älteren Arabischen Fürstenspiegel*, Leipzig, 1932.

٣) *Islamic Culture* 1930-31